مجلة الآداب، م٢٦، ع١، ص ص ٣٧-٦٥، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٤م/١٤٣٥هـ)

التناسب البلاغي في سورة الشمس

عويض بن حمود العطوي
أستاذ البلاغة المشارك، قسم اللغة العربية، كلية التربية والآداب،
جامعة تبوك، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ١٤٣٤/٢/٢٧هـ وقبل للنشر في ١٤٣٤/٦/٢٤هـ)

الكلمات المفتاحية: سورة، الشمس، التناسب، الصوت، اللفظ، المعنى، القسم، القصة، المقطع. المطلع.

ملخص البحث: يهدف هذا البحث إلى الكشف عن صور التناسب البلاغي في سورة الشمس، وذلك من خلال: التناسب الصوتي، واللفظي، والمعنوي.

وقد توصل البحث إلى نتائج من أهمها:

- ظهرت قيمة صوت (الهاء) في السورة، مما أشاع جوًّا من السكينة والخشوع والتعظيم.
- تكررت صيغة (فعّل) بوضوح في السورة على المستوى الفعلي، مما دل على التوكيد والتقوية.
- ساد التعريف في جميع الأسماء الواردة وتنوعت طرقه حسب المراد.
- وجود التقابل الدائم في ثنائية ظاهرة أظهرتها ألفاظ السورة على مستوى القسم، وعلى مستوى القصة.
- اختصت السورة بكلمات لم ترد في غيرها، وهي: (طحاها، ألهمها، دساها، دمدم)
- ظهر التقييد بوضوح في السورة للربط بين تلك المتباينات التي شاعت في السورة.
- صوّر الحذف في السورة سرعة الأحداث وضيق الزمن عنها.
- حمل اسم السورة خصيصتين مهمتين، هما: الأوّلية في الذكر، وأنه أعظم المذكورات في القسم.
- ارتبطت السورة بسورة البلد قبلها بالموضوع، وهو حالة النفس البشرية بين الخير والشر، وبالإقسام بأشرف الأماكن في الأرض والسماء.
- ظهر التناسب بين القسم والمقسم عليه و القصة، في الإقسام بأظهر الآيات على أعظم الأشياء في النفس البشرية، ومُثِّل لذلك بأوضح القصص التي يعرفها العرب.

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فهذا بحث جعلت عنوانه: (التناسب البلاغي في سورة الشمس)، وهو يهدف إلى تقديم نموذج مختلف في دراسة البلاغة التطبيقية في القرآن[1]، تتكامل فيه أدوات البلاغة للكشف عن صور التناسب في السورة القرآنية، وهذا- في رأيي- أفضل بكثير من دراسة السورة من خلال أبواب البلاغة المعروفة.

وقد حداني إلى اختيار هذا الموضوع في هذه السورة ما يأتي:

١- كثرة الظواهر الأسلوبية في السورة الكريمة، التي أهمها:

- أنها اشتملت على أطول قسم في القرآن.
- أنها السورة الوحيدة التي أقسم الله فيها بالشمس.
- أنها اشتملت على مجموعة من الألفاظ التي لم ترد في غيرها.
- أنها جاءت على فاصلة واحدة.
- أن نصف السورة قَسَم ونصفها الآخر قصة.

٢- عدم إفراد هذه السورة بدراسة بلاغية من هذا النوع.

الدراسات السابقة

وقد وجدت بعض الدراسات التي عنيت بهذا الموضوع، ولعل أقربها إلى هذا البحث ما يأتي:

- التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد.
- التناسب البياني في الحديث: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، (رسالة دكتوراه)، نادية البقالي، جامعة محمد الخامس، الآداب، الرباط.
- التناسب في سورة البقرة (رسالة ماجستير)، طارق مصطفى محمد حميدة، جامعة القدس، فلسطين.
- التناسب البلاغي في سورة لقمان (رسالة ماجستير)، موسى الزهراني، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية.
- أثر النظم في تناسب المعاني في سورة العنكبوت، (رسالة ماجستير)، مقبولة علي الحصيني، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية.
- وأغلب هذه الدراسات غير مطبوع، وقد تيسر لي الاطلاع على بعضها، أو على ملخصاتها، وهي دراسات مفيدة في الموضوع ولا شك، لكنّ هذا البحث يختلف عنها إما في المضمون وإما في طريقة المعالجة، وبالتالي فهو مكمّل لما سبق.

وسيتّبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي للنص المدروس بغية التوصل للكشف عن صور التناسب فيه، وسيكون تقسيم البحث على المباحث الآتية:

المبحث الأول: التناسب الصوتي.

المبحث الثاني: التناسب اللفظي.

المبحث الثالث: التناسب المعنوي.

سورة الشمس:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن

(١) ونحن نقول ذلك مع وجود بعض الدراسات التي طبقت هذا المنهج لكنها ما زالت قليلة، وما زالت آلية البحث عن صور التناسب فيها مختلفة.

زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾.

المبحث الأول: التناسب الصوتي

يمكننا لمح صور التناسب الصوتي في السورة من خلال: الحروف، والمقاطع، والصيغ، والفواصل.

أولاً: الحروف

اختلف المفسرون في عدد حروف هذه السورة، فقد ذكر الثعلبي (توفي سنة٤٢٧) أنها: "مئتان وسبعة وأربعون حرفاً" (الثعلبي، ٢٠٠٢: ٢١٢/١٠)، في حين رأى الخطيب (توفي سنة ١٣٩٠هـ) أنها مئتان وأربعون حرفاً (الخطيب، د ت: ٦٠/٣)، وعند تحليل حروف السورة بما فيها المشدّد، يتضح أنها بلغت مئتين وتسعة وخمسين حرفاً، موّزعة ومرتبة حسب الأكثر على النحو الآتي:

ألف المد: (٤٨)، الهاء: (٢٧)، الواو (٢٦)، اللام: (٢٥)، الهمزة (وصل وقطع): (١٨)، الميم: (١٦)، الباء: (١١)، الفاء (١٠)، القاف: (١٠)، السين: (١٠)، الذال: (٩)، الراء: (٧)، الدال: (٦)، الياء: (٥)، العين: (٤)، الشين: (٤)، الكاف: (٤)، التاء: (٣)، الحاء: (٣)، الجيم: (٢)، الثاء: (٢)، الخاء: (٢)، الضاد: (٢)، الطاء: (٢)، الغين: (٢) الزاي: (١).

ولم يرد حرفَا الصاد والطاء في السورة، ومما يلفت النظر في هذا التحليل؛ شيوع ألف المد، وهذا ما يتسق مع شيوع الفتحة أيضًا، التي تكررت (١٢٥) مرة، والألف والفتحة فيهما امتداد نحو الأعلى، امتداد قصير تمثله الفتحة، وامتداد طويل تمثله ألف المد، وهذا التوجه نحو الأعلى سمة تصبغ السورة كلها، حتى في فواصلها، وهذا يتسق مع بداية القسم الذي بدأ بآيات علوية تتسم بالوضوح والظهور؛ لمن رفع بصره وأنعم نظره، لا لمن دسّ رأسه في التراب، فدسّى نفسه وأهلكها.

ومجيء (الهاء) في المرتبة الأولى في بناء كلمات السورة- إذا استثنينا حروف المد لأنها ترد كثيرًا- يعني أن الصوت السائد في هذه السورة هو الهاء، ومناسبة ذلك ظاهرة، فإن السورة تتحدث عن آيات الله الباهرة الظاهرة، التي تملأ الكون المحيط بنا، والتي تبعث السكينة والطمأنينة في نفس كل من تأملها، إن هذه (الهاء) بلطافتها وهمسها، واقتران ألف المد بها في (١٧) موضعًا؛ ومجيء الهاء مفتوحة في جل مواضعها، يوحي بجو من الهدوء والسمو في آن واحد، ولعلها تصوّر سمو النفس بالإيمان عندما تتناغم مع هذا الكون في عبادة الله، وما سوى ذلك فالنفس فيه تهوي نحو الحضيض والسُّفل، والذنب يمثل انتكاس النفس وهبوطها، ولم تتكرر الكسرة في كلمة كما جاءت في كلمة ﴿ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ حيث تكررت ثلاث مرات، كما أن صوت الهاء السائد في السورة لم يرد مكسوراً إلا في هذه الكلمة.

والصوت الثاني هو: الواو، وهي تُشعر في نطقها بالاندفاع نحو الأمام إذا كانت مدًّا، وتشير إلى الانفتاح إلى الأمام إذا كانت مفتوحة، وقد كانت كذلك في (٢٢) موضعًا، وجاءت مدًّا في (٤) مواضع، والصوت الثالث هو: اللام بما فيه من خاصية الالتصاق والاتجاه نحو الحنك الأعلى، وقد يشير بذلك إلى التماسك والقوة، وقد ورد في (٢٥) موضعًا، والصوت الرابع: الميم، بما فيه من

انطباق الشفتين مع غنّة في أكثر مواضعه، وكأنه يشير إلى الخشوع والسكون العميق، وقد ورد في (١٦) موضعًا، وجاءت كل من الفاء والقاف والسين في (١٠) مواضع.

ومما يؤازر ما سبق شيوع الفتحة كما ذكرنا في (١٢٥) موضعًا، ثم يليها السكون في (٤١) موضعًا، وكأنما هي تنشر السكون والخشوع مع تلك الهاء التي قارنها المد غالباً.

بينما تقاربت سائر الحركات في العدد، فالكسرة جاءت في (١٨) موضعًا، والضمة في (١٥) موضعًا، والشدة وردت في (١٤) موضعًا، كلها مع الفتحة، إلا في موضع واحد كانت مع الضمة في كلمة: ﴿ رَبُّهُم ﴾، وهذا ما يتناسب مع خفة إيقاع السورة، فالشدة ثقيلة لكن حين نوازنها بالفتحة تكون أخفّ. وبهذا نجد التناسب واضحًا بين ألف المد والهاء والفتحة والسكون، في تناغم عجيب يشيع في السورة جوًّا من السكينة والخشوع والهدوء، يتواءم مع روعة تلك الآيات المذكورة في القسم، وما تشيعه من هيبة من جانب، ومن تناسب وتناسق بينها من جانب آخر. ومن صور التناسب والتجانس الصوتي في الحروف ما نجده في كلمتي ﴿ سَوَّىٰهَا ﴾ التي وردت في توافق كامل في نوع الحروف وترتيبها وعددها وتشكيلها، وهو ما يعرف بالجناس التام، يقول ابن عاشور (توفي نسة١٣٩٣هـ): "وبين ﴿ ﴾ هنا وقوله: ﴿ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ قبله محسن الجناس التام".(ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٧٥/٣٠). وهذا التجانس الصوتي بين الكلمتين ينبه النفس المتلقية للمعنى، فتتساءل عن صورة التسوية هنا أو هناك، وعن العلاقة بينهما، فالتجانس الصوتي بين الكلمات ليس مجرد استحسان تتلقاه الأذن وتطرب له ثم لا شيء بعد ذلك، بل هو تنبيه لمعنى مهم، وأداة للتنبيه على رابط ما لابد من التفكير فيه، والوقوف عنده؛ ذلك لأن تجانس الحروف يجذب السمع إليها، وقد قيل: "وفائدته الميل إلى الإصغاء إليه، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاءً إليها، ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به آخر كان للنفس تشوّق إليه".(الإبياري ، ١٤٠٥ ٢٦٥/٣).ومادة الكلمة تعود إلى أصل واحد يقول عنه ابن فارس (توفي سنة٣٩٥ه،): "السين والواو والياء أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ"، لكن السياق يحدد نوع تلك التسوية ومعناه الدقيق، فالتسوية الأولى متعلقة بالنفس وهي صورة للكمال والجمال، وهي مذكورة في جانب النعمة والمنة، في حين كانت التسوية الثانية متعلقة بالأرض وهي صورة للدمار، وهي مذكورة في جانب العذاب، وبهذا ندرك أن رابط الصوت بين الكلمتين، أشعرنا بسعة الفارق بينهما في المدلول والإيحاء.(فارس، ١٤٢٣).كما يشير ذلك التوافق الصوتي بين اللفظتين إلى وجود تناسب من وجه آخر، وهو أن فاعل التسوية على وجه الجمال، هو ذاته فاعلها على وجه العذاب، فالنفس المخلوقة في أحسن تقويم، يمكن أن تتعرض إلى ذلك العذاب المدمر، وهذا ولا شك يبعث على الاتعاظ والنظر، ففي الكلمتين جمع بين النعمة والنقمة، وبين النعيم والعذاب.

ثانياً: المقاطع: المقطع هو: أصغر كتلة نطقية يمكن أن يقف عليها المتكلم، وهو يتكون من حروف صامتة ويرمز لها بـ(ص) وحركات قصيرة أو طويلة ويرمز لها بـ(ح)[1]، وبناء على ذلك يمكن تحليل السورة إلى المقاطع الآتية:

---

(١) من وظائف الصوت اللغوي، محاولة لفهم صرفي ودلالي، د. أحمد كشك، ٢١.

التركيب المقطعي للآيات من ١—١٠ وهي تشمل القسم والمقسم عليه.

المقطع / الآية	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣
١	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ح						
٢	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ح				
٣	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح				
٤	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح					
٥	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ح				
٦	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ح					
٧	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح					
٨	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح
٩	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح					
١٠	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح					

التركيب المقطعي للآيات من ١١- ١٥ وهي تشمل القصة.

المقطع / الآية	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
١١	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح		
١٢	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح				
١٣	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح
	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح					
١٤	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص
	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص
	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح								
١٥	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ح				

ومن خلال هذين الجدولين نستطيع أن نقول: إن هناك تجانسًا كبيرًا في المقاطع الصوتية، وهو ما يحسه قارئ أو سامع هذه السورة، "وحلاوة الإيقاع في الكلام العربي المنظوم والمنثور ترجع إلى التناسب في ترتيب المقاطع وتركيباتها" (أبو زيد، ١٩٩٢: ٣١٤)، ولعل ذلك يتمثل في الاتفاق التام في بعض المقاطع بدايةً أو نهاية، وقد ظهر ذلك جليًّا في مقاطع الفاصلة حيث ختمت الفواصل جميعها بمقطعين متشابهين: ص ح ح/ ص ح ح، وهما مقطعان يصوران كثافة المد في الفاصلة.

وقد جاءت مقاطع السورة متناسبة مع المقاطع الأكثر تكراراً في لغة العرب[1]، وهي ثلاثة على النحو الآتي: ص ح (٦٥)، ص ح ح (٥٣)، ص ح ص (٤٢).

(١) انظر: من وظائف الصوت اللغوي، ٢١. (نفس المراجع الذي في الصفحة السابقة وغير موجود بالقائمة)

ووجود هذا النوع المحدد من المقاطع وتفاوت أعدادها بما يتناسب مع الخفة والثقل، يوحي بنمط خاص من النسق الصوتي يتناسب مع هذه المقاطع المحددة، وربما يصور ثلاثي السورة: القسم، والمقسم عليه، والقصة.

ويظهر هذا التنوع في كثرة المقطع الأخف بدءاً من: (ص ح) ثم (ص ح ح) ثم (ص ح ص)، وحتى التفاوت العددي كان متقارباً، فالثاني زاد على الأول بـ(٨) مرات، والثالث زاد على الثاني بـ(٩) مرات، وهذا التنويع بين القصير والطويل، والمغلق والمفتوح هو الذي يجلي الإيحاء الصوتي الذي نشعر به؛ "وذلك لأن المقاطع الصوتية ذات وزن مختلف يتراوح بين الثقل والخفة، فإذا تناسب الثقل والخفة اندرج الإيقاع اللذيذ فيها بيسر؛ لأنه يجد الظروف الملائمة لانبعاثه، فيضفي على العبارة مزيداً من الحسن". (العياشي، ١٩٦٩: ٥٨).

وبالنظر في المقاطع الواردة في السورة نجد كثرة المقاطع المفتوحة: (ص ح) و (ص ح ح)، وهذا يتوافق مع ما سبق ذكره من شيوع الفتحة والمد بالألف بصورة خاصة، بحيث كان الانفتاح نحو الأعلى، وسائر الحركات بوجه عام، فكل ذلك يؤكد شيوع الحركة في أغلب المقاطع، سواءٌ أكانت حركة قصيرة أم طويلة، في حين كانت المقاطع المغلقة قليلة مقارنة بالمفتوحة، وقد تكثفت في نهايات الآيات قبل المقطعين الأخيرين في الفاصلة، وكأنها تمثل وقفة دالة قبل الانطلاق في مقطعين مفتوحين طويلين تختم بهما كل آية، وقد ورد ذلك في (١١) آية من أصل (١٥)، حيث كان ترتيب المقاطع الثلاثة الأخيرة في الآيات كالآتي: ص ح ص، ص ح ح، ص ح ح، ويظهر ذلك في الكلمات الآتية: جلّاها، يغشاها، سوّاها، تقواها، زكّاها، دسّاها، طغواها، أشقاها، سقياها، سوّاها، عقباها.

وفي أربع آيات ناب عن المقطع المغلق مقطع قصير مفتوح فجاء على هذا النحو: ص ح، ص ح ح، ص ح ح، ويظهر ذلك في الكلمات الآتية: ضحاها، تلاها، بناها، طحاها، وبهذا تكون جميع مقاطعها مفتوحة، وكل هذه الكلمات تحمل دلالات السعة والانتشار.

إنّ شيوع المقاطع المفتوحة ليتناسب مع جو السورة المفعم بالنظر في ملكوت الله العظيم وقدرته الباهرة، إنه يلفت الأنظار إلى السمو نحو الأعلى وهو ما يعبر عنه محور السورة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾، والتزكية هي النماء والسمو بهذه النفس نحو العلو، والمقاطع المفتوحة لاسيما الطويلة؛ تتناسب مع جوِّ التأمل والنظر والخشوع.

كما أن شيوع المقاطع القصيرة يضفي لوناً من الخفة على التقطيع الصوتي للسورة الكريمة، ويبرز أثر المقاطع الأطول، ثم إنّ كل هذه المقاطع، المفتوح منها والمغلق، القصير والطويل؛ تتكامل لترسم لوحة صوتية تتناسب مع الموضوع، فكما ذكرنا في المقدمة يمكننا تقسيم السورة قسمين رئيسين: قَسَم وقصة، وعلى هذا جرى تقسيم المقاطع في الجدولين السابقين[1]، ومن خلاله نلحظ بوضوح كثرة المقاطع في القصة، فقد بلغت في بعض الآيات (٢٤) مقطعاً، موازنة بالقسم فقد بلغ أطول آياته (١٣) مقطعاً، وهذا يتناسب مع كثرة الأحداث في القصة عادة.

---

(١) وقد سبق إلى هذا الباحثة أناهيد حريري في كتابها: التصوير القرآني في جزء عم، دلالية أدبية تحليلية (مكتبة كنوز المعرفة، جدة، ط١، ١٤٢٦هـ،٢٠٠٦م) ٢/٦٦٥ و ٦٨٣.

كما أن أكثر عدد ورد في مقاطع القِسْم الأول (القَسَم والمقسم عليه) كان في الآية الثامنة وهي: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ فقد بلغت مقاطعها (١٣) مقطعاً، مع أنها تتشابه مع كثير من الآيات في عدد الكلمات، ولعل ذلك يشير إلى أهمية مضمونها، فهي التي تصور أهم خصيصة في تلك النفس التي هي محور الحديث.

وفي المقابل نجد في القصة أكثر الآيات في المقاطع كانت الآية الرابعة عشرة وهي: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ ﴾ فقد بلغت مقاطعها (٢٤) مقطعاً، ولاريب فهي التي تمثل النموذج العملي لتطبيق تلك الآية المركزية في القسم وهي: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ فبين الآيتين تناسب، لذا ربطتا بما قبلهما بالفاء، وكأنهما نتيجة له؛ لذا كانا الأظهر في المقاطع.

ومن الفوارق بين القسمين أن آيات القَسَم بدأت بالمقاطع المغلقة (ص ح ص) وكل ذلك مع الآيات الكونية، ثم لما انتقل السياق إلى النفس تغيرت البداية إلى المقطع القصير المفتوح (ح ص) وكأنها إشارة إلى تغاير هذا النوع من المقسم به عما سبقه، أو هو تهيئة للانتقال الصوتي للموضوع الثاني وهو القصة، التي بدئت كل آياتها بالمقطع القصير المفتوح (ح ص) إلا في آية واحدة، على عكس القسم الأول، وقد يشير ذلك إلى سرعة الأحداث وتنوعها في القصة، أكثر من الأجرام الكونية الصامتة.

ثالثًا: الصيغ

يمكننا الوقوف على عدد من الصيغ ذات الإيحاء الدلالي في السورة، كصيغة (فَعّل) في: ﴿ جَلَّىٰهَا ﴾ و﴿ سَوَّىٰهَا ﴾ و﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ و﴿ دَسَّىٰهَا ﴾ و﴿ كَذَّبَتْ ﴾ و﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ و﴿ ﴾.

وهذه الصيغة الفعلية توحي بالتكرار، أو بعمق الفعل وقوته، يقول ابن جني (توفي سنة ٣٩٢هـ): "وأما (فَعّل) فللتكثير، نحو غلّق الأبواب، وقطّع الحبال، وكسّر الجِرار...وهذه الزوائد في هذه المُثُل إنما جيء بها للمعاني، (ابن جني، د ت: ١/٢٢٣).

فعلى سبيل المثال: الفعل (جلّى) في قوله تعالى ﴿ جَلَّىٰهَا ﴾ غير الفعل (جَلَى)، والحديث عن الشمس أو عن الأرض كما قيل، والذي يترجح أنه للشمس حتى تستقيم الضمائر، ويكون المراد أن النهار يجلّي الشمس، بمعنى أنه يبين قوة سلطانها، فتكون فيه جلية واضحة، ولو قيل: جَلَاها بالتخفيف لكان المعنى دون ما ذُكر، "وتظهر المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدل عليه من حيث قوة أصواتها المناسبة لقوة التجلية، ...فالجيم القوية تلائم بداية التجلية، واللام المشددة القوية ومعها الألف الممتدة تقابلان البروز والوضوح"(حريري، ١٤٢٦: ٢/٦٦٢).

والفعل (دسّ) يصور معنى الإخفاء بمادته، يقول ابن فارس: "الدال والسين في المضاعف والمطابق أصلٌ واحد يدلُّ على دُخول الشيءِ تحت خفاءٍ وسِرّ" (ابن فارس، ١٤٢٣)، كما أنه يصوره بهمس سيناته المتتالية، التي كانت في الأصل ثلاثة، فالفعل (دسّ) أصله دسَسَ، ثلاثي على وزن (فعل)، فلما أريد تكثيف الدلالة، جيء بسين ثالثة فصار: دسّس، "بثلاث سينات فلمّا توالت الأمثال قلبت السين ياء، ثمّ جرى فيه إعلال بالقلب.. قال أهل اللغة: والأصل دسّسها من التدسيس وهو إخفاء الشيء في الشيء فأبدلت سينه ياء" (صافي، ١٤١٨:

٣٤١/٣٠)، وهم يفعلون ذلك "طلباً للتخفيف"(ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٧١/٣٠)، وهكذا حملت هذه الصيغة عدداً من التحولات الصرفية ذات الدلالة، فالتضعيف بالتشديد أوحى بالتكثير، والإبدال أدى إليه طلب التخفيف، فحصلت الصيغة على مزية التخفيف مع بقاء دلالة التكثيف والتكثير.

وهكذا اتضح كيف جاءت (فعّل) معبرة عن قوة المعاني التي دلت عليها، وسبيل ذلك كان التكرير في عين الفعل، يقول ابن جني: "ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل، فقالوا: كسّر، وقطّع، وفتّح، وغلّق؛ وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل".(ابن جني، د ت: ١٥٥/٢)

ومن الصيغ الفعلية المعبّرة صيغة (انفعل) وجاء عليها الفعل ﴿ ٱنۢبَعَثَ ﴾ حيث تدل هذه الصيغة على المطاوعة، وزيادتها جاءت في أولها، و"الزوائد في الأفعال والأسماء موازنة للمعاني الزائدة على معنى الكلمة، فإن كان المعنى الزائد مترتباً قبل المعنى الأصلي، كانت الحروف الزائدة قبل الحروف الأصلية كالنون في الفعل، وكحروف المضارعة في بابها، وإن كان المعنى الزائد في الكلمة آخراً كان الحرف الزائد على الحروف الأصلية آخراً كعلامة التأنيث وعلامة التثنية والجمع..."(ابن القيم، ١٤١٦: ٢٨٨/٢)، وهذا يعني أن هذا الفعل المذكور وهو الانبعاث، كان استجابة لمثير ما سبقه، وهذا ما يفسر عود الضمائر بعد ذلك بالجمع في: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ ﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾...، فهذا الأشقى لم ينبعث إلا حينما بعثه هؤلاء المحرضون؛ لذا كان العذاب شاملاً لهم جميعاً.

ومن الصيغ الفعلية أيضاً: (دَمْدَم)، وهو فعل على وزن (فَعْلَل)، وفيه خاصية التكرار لحرفين، وهذا التكرار يحمل جرساً معيّنًا يوحي بالطرق والتكرار للمعنى، يقول ابن جني: "وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير؛ نحو الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والقعقعة، والصعصعة، والجرجرة، والقرقرة"(ابن جنى، د ت: ١٥٣/٢)، ومثل هذه الصيغة فيها أكثر من دالّ على المعنى، فيها تكرير الحروف: الدال تكررت مرتين والميم مرتين، وفيها تكرير المقطع الكلامي: دَمْ دَمْ، فالأول يشير إلى التكرير بصورة عامة، والثاني يشير إلى تحديد نوع المكرر، "وهذا التكرار المقطعي يوحي بتكرار عملية الدمدمة ويحكيها"(حريري، ١٤٢٦: ٦٨٣/٢)، وهذا يعني تعظيم شأن ذلك العذاب، يقول الزحيلي: "فالتعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب"(الزحيلي، ١٤١٨: ٢٦٢/٣٠)، وقد قيل في معنى الدمدمة كلام كثير، ومما ذكر من المعاني: الإطباق، واللطخ، الاكتساء بالشحم، والدفن، والغضب، والكلام المزعج[1]، وكل هذه المعاني تصور شدة غضب الله عليهم، وعظم العذاب الذي حل بهم، وإحاطته بهم، ومما يؤيد ذلك تعدية الفعل بحرف الجر (على) المشعر بالسيطرة والاستعلاء، يقول البقاعي: "ودل بأداة الاستعلاء على شدته وإحاطته".(البقاعي، ١٤١٥: ٤٤٣/٨)

وأما الصيغ الاسمية فنجد منها كلمة: ﴿ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ فإنها صيغة لم ترد عليها الكلمة إلا في هذا الموضع، وكأن المراد تعظيم ذلك الطغيان، وتصوير عظم الجريمة والجريرة

(١) انظر كل ذلك في: مفاتيح الغيب ٣١/ ١٧٧.

التي ارتكبها هذا الشقي، فعبر معه بالاسم لا بالمصدر طغيانا، يقول الراغب (توفي سنة **٥٠٢هـ**): "والطغوى الاسم منه" (الأصفهاني، ١٤١٢: ٥٢٠)، وينص الألوسي على قوة المعنى في طغوى بقوله: "ويوصف العذاب بالطغيان بهذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ ﴾ [1]، وقد يوصف بالطغوى مبالغة"، (الألوسي، د ت: ١٤٥/٣٠)، ويلمح البقاعي دلالة أخرى مردها دلالة الحروف فيقول: "واختير التعبير به دون اليائي[أي طغيان] لقوة الواو، فأفهم أنهم بلغوا النهاية في تكذيبهم، فكانوا على الغاية من سوء تعذبهم"(البقاعي، ١٤١٥: ٤٤٢/٨)، وهو تفسير أدق من مجرد القول إنه "خرج على هذا المخرج لأنه أشكل برؤوس الآي".(القرطبي، د ت: ٧٨/٢٠).

ومن ذلك صيغة التفضيل (أفعل) في قوله تعالى: ﴿ أَشْقَىٰهَا ﴾ وهي صيغة تشير إلى زيادة شقاء هذا المعتدي عن شقاء غيره، "والتفضيل في الشقاوة؛ لأنّ من تولى الفقر وباشره كانت شقاوته أظهر وأبلغ".(الزمخشري، د ت: ٧٦٤/٤)

ثالثاً: الفاصلة

عرّف العلماء الفاصلة بتعريفات تشير إلى علاقتها بالمعنى، فالرماني (توفي سنة٣٨٦هـ) يقول: " الفواصل، حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني(الرماني، د ت: ٧٩)، ويقول الزركشي(توفي سنة٧٩٤هـ): "الفاصلة، هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع"(الزركشي، د ت: ٥٣/١)، وبهذا تجمع الفاصلة بين استقلال كلماتها في آخر الآية، وتوافقها في الروي أو الوزن (الحسناوي، ١٤٠٦: ٢٩)، وهذا التوافق له حدود، فإن كان في ثلاث حركات بعدها ساكن فهي الفاصلة الصغرى، وإن كان في أربع حركات بعدها ساكن فهي الكبرى. (الحسناوي، ١٤٠٦: ٢٤).

وقد جاءت فواصل هذه السورة على روي واحد هو الهاء المطلقة بالألف (ها)، وقد حُصرت السور ذات الروي الواحد في القرآن في إحدى عشرة سورة هي: (القمر، والمنافقون، والأعلى، والشمس، والليل، والقدر، والعصر، والفيل، والكوثر، والإخلاص، والناس)، ورغم شيوع روي (الهاء) نسبياً في القرآن حيث ورد (١٢٩) مرة، واحتل المرتبة الثامنة في ترتيب شيوع الروي في الفاصلة القرآنية(الحسناوي، ١٤٠٦: ٢٩٦)، إلا أن هذا هو الموضع الوحيد الذي جاء فيه حرف (الهاء) رويّاً لسورة كاملة، وهذا يشير إلى ظهور دلالة الهاء في هذه السورة - لاسيما في رويّها- هذا الروي الذي جعل الوقف على رؤوس الآي له سمة خاصة من الهدوء والسكينة والخشوع لما في صوت الهاء من امتداد النفس العميق، كما أن اتحاد الروي في هذه السورة يشير إلى ملمح آخر هو اتحاد موضوعها وتناسب أجزائه، في حين نجد تنوعاً في أغلب سور القرآن في الروي بما يوحي بتغير في الموضوع أو نوعه أو غير ذلك.

وبالنظر في الكلمات التي وقعت فاصلة حسب التعريف السابق؛ نجد أنها توافقت في عدد كبير من الحروف والحركات، فنجد جميع الكلمات توافقت في انتهائها بحرف الألف قبلها هاء مفتوحة قبلها ألف مدّ، قبلها حرف مفتوح، وبهذا يتبيّن مدى التوافق من حيث الوزن، فقد

(١) سورةالحاقة: ٥.

جاءت كلمات الفاصلة متوافقة في أربع مراحل، ثم يكون ما قبل ذلك ساكنًا في إحدى عشرة، وفي ثلاث كلمات جاء الخامس مفتوحًا، وفي واحدة جاء مضمومًا ﴿وَضُحَىٰهَا﴾.

أمّا من حيث وزن كلمات الفاصلة فإنها انحصرت فيوزنين، الأول: (//°/°) وجاءت عليه أربع فواصل: ضحاها، تلاها، بناها، طحاها، والثاني: (/°/°/°) وجاءت عليه سائر الفواصل وعددها إحدى عشرة فاصلة: جلّاها، يغشاها، سوّاها، تقواها، زكّاها، دسّاها، طغواها، أشقاها، سقياها، سوّاها، عقباها، وهذا ما يعرف بالمتوازي، يقول عنه الزركشي: "وأشرفها المتوازي وهو أن تتفق الكلمتان في الوزن وحروف السجع، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾". (الزركشي، د ت: ٧٥/١)

وهذا التوافق الصوتي بهذه الكيفية يجعل الجرس الصوتي ظاهرًا في السورة، كما أن هذه الهاء الممدودة تعطي مجالاً رحبًا لمد الصوت، يقول سيبويه (توفي سنة ١٨٠ هـ) عن وجوه القوافي: "أما إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون، لأنهم أرادوا مد الصوت"(سيبوية، د ت: ٢٠٤/٤)، والألف باتجاهها نحو العلو كأنها إشارة إلى وضوح الحق وضرورة إظهاره ورفعه والتذكير به.

وهذا يناسب جو السورة التي تدعو إلى النظر والتفكير في ملكوت الله الباهر، في لحظات تغفل فيها النفس البشرية عن ذلك بسبب إلف التكرار كما يحصل في هذه المخلوقات المقسم بها، فلا يشعر عندها الإنسان بفضل الله عليه، فيحتاج حينها إلى ما ينبهه من غفلته، تماماً كما ألف قوم صالح - عليه السلام- الناقة، وهي الآية العظيمة التي طلبوها، فكانت شيئاً عجيباً في أول أمرها، ثم مع الألفة تناسى القوم ذلك، وتجرأوا عليها بالعقر، لذا نبههم نبيهم بأسلوب التحذير: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، وتنبيه الغافل يحتاج إلى وضوح وصوت مرتفع، وصوت الألف هو الأقوى في ذلك، يقول إبراهيم أنيس: "وألف المد هي الوحيدة بين الحركات التي إذا جاءت قبل الروي، التزمت في كل الأبيات لأنها أوضح...في السمع"(أنيس، ١٩٦٥: ٢٦٥)، لذا قيل: إن "الطغيان والطغوى مصدران، إلا أن الطغوى أشبه برؤوس الآيات فاختير لذلك"(الطبرستاني، ١٤٢١: ١٧٦/٣١)، ونقول إنه كذلك، إضافة إلى دلالته المعنوية التي أشرنا إليها من قبل.

ومما لا يخفى أن الفاصلة القرآنية ليست مجرد تناسب صوتي تأنس له الأذن وينجذب إليه الفؤاد، بل لها وظيفة معنوية مهمة، إذ هي إحدى وسائل ترابط المعاني واتصالها، يقول الزركشي: "اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة: مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولاً، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك لكن منه ما يظهر ومنه ما يستخرج بالتأمل للبيب"(الزركشي، د ت: ٧٨/١).

ومن حيث بناء الفاصلة في السورة فقد تنوعت بين الأفعال والأسماء، حيث وردت أفعالاً في تسعة مواضع: (تلاها، جلاها، يغشاها، بناها، طحاها، سوّاها، زكّاها، دسّاها، فسوّاها)، وقد حملت هذه الأفعال دلالات الحركة، والدوام، وهي قضايا تتصل بالكون المنظور حولنا، ونجد لهذه الأفعال أثراً ملموساً يتكرر في

حياتنا، وكأن في ذلك إلماحة إلى ضرورة النظر في هذا التغير المرتبط بهذه المخلوقات العظيمة، وأنه بعض نعم المولى على خلقه، كما أن هذه الأفعال جاءت ماضية لتعطي معنى التأكيد لمدلولها، فهذه الحركة التي تعبر عنها، هي صفة دائمة لها من قبل وإلى حين يأذن الله بتغيير يشمل نظام هذا العالم كله.

وجاءت سائر الفواصل بالصيغة الاسمية في ستة مواضع هي: (ضحاها، تقواها، طغواها، أشقاها، سقياها، عقباها)، وهذه الصيغ تحمل سمة الثبات، وهو المطلوب فيها.

وفي هذه الفواصل التي يقف عندها القارئ، يظهر التناسب بينها بحيث ينتقل الصوت من فاصلة إلى أخرى فتتضح معان، قد لا تُلمح لو وصل الكلام وفقدت الفاصلة ميزتها.

ومما يظهر هنا ذلك التقابل في المعاني بين كثير من كلمات الفاصلة: فالتجلية في مقابل التغشية، والبناء في مقابل الطحو، والتسوية (مظهر خارجي) في مقابل التقوي (مخبر داخلي)، والتزكية في مقابل التدسية.

وهذا التقابل بين الكلمات يضفي حلية معنوية تسهم في إيضاح المعاني وتجلّي مدلولاتها، وتظهر التفاوت بينها، مما يبين عظمة الخالق سبحانه في خلقه وتدبيره.

المبحث الثاني: التناسب اللفظي

سندرس التناسب اللفظي في هذه السورة من خلال: المفردات، والتراكيب.

أولاً: المفردات

عدد كلمات هذه السورة "أربع وخمسون كلمة" (الثعلبي، : ٢١٢١٤٢٢/١٠)[1]، وقد تنوعت هذه المفردات، بين الأسماء والأفعال، وإن كانت الأسماء هي الأكثر، وهي: (الشمس، ضحاها، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض، نفس، فجورها، تقواها، ثمود، طغواها، أشقاها، رسول، الله(٢)، ناقة، سقياها، ربّهم، ذنبهم، عقباها، ما(٣)، مَنْ (٢).

ومن صور التناسب في الأسماء ما يتعلق بالتعريف والتنكير، ومدى تلاؤم طريقة التعريف مع الغرض والسياق الذي ورد فيه، وقد جاءت جل الأسماء معرّفة بـ(ال) العهدية الذهنية، مما يشير إلى أن المعرّف بها هو المعهود الذي ينصرف الذهن إليه عند ذكره، وهذا ظاهر في: الشمس، والقمر، والنهار، والليل، والسماء، والأرض، فـ(ال) هنا تحضر في ذهن المتلقي الصورة التي يعرفها عن ذلك المعرّف، عندها يحدد المراد تحديداً دقيقاً، في حين لو نُكّرت هذه الأسماء لذهب الذهن إلى سماء غير محددة وكذلك القمر وهكذا، ولا شك أن المراد هو تلك المخلوقات التي عُهد ذكرها، وتعود الناس على رؤيتها والإحساس بها، وبذلك يكون القسم بها محركاً للتنبه لما فيها من بديع صنع الخالق، وما يعود عليهم بسببها من المنافع العظيمة التي يتناساها الناس أو يفقدون الشعور بها بسبب كثرة الإمساس.

أما التعريف بالعلمية فقد ورد في أسماء الله الحسنى، ومنها: ﴿ ٱللَّهِ ﴾، فقد ورد مرتين، و(رب) وقد ورد مرة واحدة مضافاً ﴿ رَبُّهُم ﴾، ومناسبة ذكر لفظ الجلالة (الله) في الموضعين في آية واحدة، في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ

(١) وبمثله قال الخطيب في: التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٦٠).

﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴾ أن السياق للتذكير، وتعظيم الأمر وتهويله في نفوسهم لعلهم يرتدعون، فلفظ الجلالة كما يقول أبي السعود (توفي سنة٩٨٢هـ) يربي المهابة في النفوس(ابو السعود، د ت: ٢٢٧/١، ١١/٢)، فهنا بيان أن القائل هو رسول الله، وأن الناقة هي ناقة الله.

بينما نجد لاسم (الرب) مناسبة أخرى، فرغم أن السياق للعذاب: ﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ ﴾ إلا أن الاسم الذي ورد هو (ربهم)، وهو الذي يعني الرحمة والحفظ والرعاية، فكيف ناسب هذا ذاك؟

قد يكون في ذلك دلالة على عظم غضب الله عليهم، فقد ظهرت عليهم آثار ربوبيته سبحانه، حيث أنعم عليهم بنعم كثيرة واختصهم بالناقة التي كانت مصدر رزق لهم، ومع ذلك جحدوا وكفروا، فمن أنعم عليهم، هو من يعذبهم، وفي هذا يقول البقاعي (توفي سنة ٨٨٥هـ): "ودل على شدة العذاب لشدة الغضب بلفت القول بذكر صفة الإحسان التي كفروها، لأنه لا أشد غضباً ممن كفر إحسانه فقال: (ربهم) أي الذي أحسن إليهم فغرَّهم إحسانه فقطعه عنهم فعادوا كأمس الدابر" (البقاعي، ١٤١٥: ٤٤٣/٨).

ومما جاء بالعلمية (ثمود) وهو اسم لقبيلة صالح عليه السلام، وإظهار اسم القبيلة هنا، دون قوم صالح مثلاً؛ كما ورد مع نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ ﴾ [التوبة: ٧٠]؛ لأن ثمود عَلَم على قبيلة قائمة بذاتها، فشهرتهم باسم القبيلة أظهر، ومثلهم عاد، وغيرهم قد يشتهر بالمكان أو باسم نبيهم، يقول الألوسي(توفي سنة ١٢٧٠هـ): "وغيّر الأسلوب في القومين؛ لأنهم لم يشتهروا بنبيهم، وقيل: لأن الكثير منهم آمن"(الألوسي، د ت: ١٣٤/١٠)، ويقول في موطن آخر: "واستغنى في عاد وثمود عن ذكر القوم لاشتهارهم بهذا الاسم الأخصر، والأصل في التعبير العَلَم؛ فلذا لم يقل: قوم صالح وقوم هود ولا عَلَم لغير هؤلاء"(الألوسي، د ت: ١٦٥/١٧).

ومن صور التعريف الظاهرة في السورة، التعريف بالإضافة لا سيما إلى الضمير، مثل: (ضحاها، فجورها، تقواها، طغواها، أشقاها، سقياها، ربهم، ذنبهم، عقباها)، وهذه الإضافة توحي بارتباط المضاف بالمضاف إليه، وتعلقه به، واختصاصه به، فالضحى هو ضحى الشمس، والفجور هو فجور النفس، وهكذا.

ومن الإضافة تعريف النبي صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾، ومناسبة ذلك أن السياق لتعظيم الأمر وللتذكير لا للتعريف، فناسب أن يعرّف بالإضافة لما في ذلك من تربية المهابة في نفوسهم، كما أن في الإضافة إدماجاً لصفته المميزة له وهي الرسالة، المقتضية لطاعته، وهي على كل حال أعظم أثراً من مجرد اسمه العَلَم، وكما يقول الكوراني في سبب ذلك: "لأنه أولى بالإجلال" (كوكصو، ١٤٢٨: ٣٩٧)، وهذا ما يقتضيه الموقف، يقول أبو السعود: "عبّر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته، وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان"(أبو السعود: د ت: ١٦٤/٩)، كما أن في ذلك تهيئة لما سيقوله من كلام، وما يوجهه من تحذير، فليس ما يقوله خارجاً عن مهمته، فهو مرسل من الله وهذه مهمته، فـ"عبر بالرسول؛ لأن وظيفته الإبلاغ والتحذير الذي ذُكر هنا". (البقاعي، ٤: ٤٤٣/١٤١٥).

وأما التعريف بالإضافة في قوله تعالى: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ فإنه لتعظيم أمرها، وزيادة شرفها، والمراد ردعهم عن فعلهم القبيح بتذكيرهم بذلك، فـ"إضافة (ناقة) إلى اسم الجلالة؛ لأنها آية جعلها الله على صدق رسالة صالح عليه السلام؛ ولأن خروجها لهم كان خارقاً للعادة" (ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٧٤/٣٠)"، كما أن ذلك يؤول إلى بيان شدة طغيانهم وعتوهم، فمن يتجرأ على ما يضاف لله إلا من أعماه طغيانه عن الحق. (أبو السعود، د ت: ١٦٤/٩).

وفي المقابل لا نجد للتنكير حضوراً في هذه السورة إلا في كلمة واحدة هي: ﴿ وَنَفْسٍ ﴾، ولم ترد معرّفة فيقال: والنفس، جريًا على كل ما سبقها؛ ومناسبة ذلك أن النفوس كثيرة، ومنها التقي النقي المُفلح، ومنها غير ذلك، فالتعريف قد يفهم منه التحديد، وليس هذا مراداً هنا، كحال المخلوقات السابقة؛ لذا جاءت منكرة لتشيع وتشمل كل من هذا وصفه، يقول البقاعي: "(ونفس) أي: أيّ نفس جمع فيها سبحانه العالم بأسره (البقاعي، ١٤١٥: ٤٤٠/٨)"، ويقول أبو السعود: "والتنكير للتفخيم على أن المراد نفس آدم عليه السلام، أو للتكثير وهو الأنسب للجواب"(أبو السعود: د ت: ١٦٤/٩).

ومن صور التناسب بين المفردات نوع خاص من العلاقات هو التضاد، وهو ما يعرف عند البلاغيين بالطباق[1]، يقول ابن عاشور: "وفي هذه الآيات مُحسّن الطباق غير مرّة، فقد ذكرت أشياء متقابلة متضادة مثل: الشمس والقمر لاختلاف وقت ظهورهما، ومثل النهار والليل، والتجلية والغشي، والسماء والأرض، والبناء والطحو، والفجور والتقوى، والفلاح والخيبة، والتزكية والتدسية". (ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٧١/٣٠)

وهذا التنقل بين المتضادات في جمل متتالية، يصور - ولا شك- قدرة الخالق سبحانه، في إيجاد هذه المتناقضات وإبداعها، ثم جعلها تسير في نظام متسق لا يصيبه الاختلال.

وفي التضاد ميزة الإيضاح، وقد قيل: وبضدها تتميز الأشياء، وهذا يكشف عن: "أهمية التضاد المعنوي في معالجة الموضوعات القرآنية المختلفة من جهة، وعن قدرة هذا التقابل على الكشف عن هذه الموضوعات، لأن التقابل المعنوي يسمح بإعطاء حركة واسعة للمعنى داخل الآيات" (القرعاني، ٢٠٠٦: ٢٠٩)"، ويبين حازم القرطاجني (توفي سنة ٦٨٤هـ) كيف أن "للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراهما تحريكاً وإيلاعاً بالانفعال إلى مقتضى الكلام... وكذلك أيضاً مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخلياً عن الآخر لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده، فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيباً".(القرطاجني، ١٩٨١: ٤٤).

وصورة أخرى من التناسب تظهر في مجيء هذه المتباينات في أحسن ترتيب، فبدئ بالشمس الأعلى مكاناً والأقوى نوراً، ثم بالقمر وهو دونها فيهما، ثم بأثرها النهار والليل، ثم بالأمكنة الحاوية لهذين النيرين أو لأثرهما، وبدئ بالسماء لعظم خلقها ولمناسبة ذلك لعلو النيرين ومكانهما، ثم بالأرض التي هي مكان ظهور

(١) الطباق محسن معنوي لكن مرده إلى الألفاظ، وقد رأيت أن ذكره هنا أولى.

أثرهما، وعليها يستفيد الخلق من الشمس أو القمر نوراً أو طاقة، ثم بالنفس التي لم يذكر في مقابلها شيء محدد فعُلم أنها في مقابل ذلك كله.

كما نجد تناسباً واضحاً في اقتران كل كلمة بما يلائمها، وهذا ظاهر في هذه الثنائيات المتكررة، فعلى سبيل المثال: الضحى يذكر مع الشمس، والتلو مع القمر وهكذا، ويمكن أن يذكر غير ذلك، فلو تساءلنا لم "قال والشمس وضحاها ولم يقل: ونهارها ولا ضيائها؟[لكان الجواب]: لأن الضحى يدل على النور والحرارة جميعاً، وبالأنوار والحرارة تقوم مصالح العباد". (ابن تيمية، ١٤١٨: ٢٢٩/١٦).

إذاً الخيط الجامع هنا وما يراد لفت النظر إليه هو عظم المنة على الخلق بهذه المخلوق وما يترتب على ذلك من ضرورة شكره، وأعظم صور الشكر عبادته وحده، كما أن أعظم صور الجحود والظلم الإشراك به سبحانه.

وقد يشير كل ذلك إلى تذبذب النفس البشرية بين النور والظلمة، والعلو والسفل، والقرار في النهاية لهذا الإنسان المكلّف، والآيات أمامه ظاهرة متكررة.

وأما الأفعال، فقد جاء منها: (تلاها، جلاها، يغشاها، بناها، طحاها، سوّاها، ألهمها، أفلح، زكّاها، خاب، دسّاها، كذبت، انبعث، فقال، فكذبوه، فعقروها، فدمدم، فسوّاها، ولا يخاف).

ويظهر من هذا الكم الكبير من الأفعال أن الحركة ظاهرة في السورة، ونجد تلك الحركة ظاهرة في تصوير تلو القمر للشمس، وتجلية النهار لضوء الشمس، وغشيان الليل، وبناء السماء، وطحو الأرض...كما نجد نوعاً من الأفعال لا يُصوِّر حركة، لأنه نفسي داخلي، مثل: ألهمها، أفلح، زكاها، خاب، دسّاها، كذبت، فكذبوه.

وهنا يظهر التناسب العجيب بين الحركة الخارجية الظاهرة في الأجرام المحيطة بنا، والتغير الداخلي في النفس البشرية التي جاءت في مقابل تلك الآيات ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾، فقد ذُكر معها الإلهام، والفلاح، والخيبة، والتدسية، والتكذيب.

وكأنها إشارة إلى صور الإشراق والنور في النفس، والسمو نحو العلو بما يتناسب مع الشمس والقمر والنهار والسماء، ويمثل ذلك كله: التقوى، وصور الظلمة والهبوط، ويمثله الفجور ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾.

وقد جاءت الأفعال بصيغة المضي إلا في فعلين هما: يغشاها، ولا يخاف. ومناسبة المضارع مع الليل لما فيه من استحضار الصورة، وكأنها ماثلة للعيان، فهو يغشى ضوء الشمس رويدًا رويدًا، كما أن الفجور يصبغ هذه النفس بالسواد شيئًا فشيئًا، ولما في هذه الصورة من الهيبة والخوف؛ جاء الفعل مع الليل بالمضارع المُشعر بالتجدد والحركة الآنية، وجمع الألوسي الأقوال في ذلك بقوله: "وجيء بالمضارع هنا دون الماضي كما في السابق بأن يقال: إذا غشيها،...رعاية للفاصلة، ولم يقل: غشاها؛ لأنه يحتاج إلى حذف أحد المفعولين لتعديه إليهما؛ فإنه يقال: غشيته كذا... وقال بعض الأجلة: جيء بالمضارع للتنبيه على استواء الأزمنة عنده تعالى شأنه، وقال الخفاجي: الأولى أن يقال المراد بالليل الظلمة الحادثة بعدمالضوء لا العدم الأصلي والظلمة الأصلية؛ فإن هذه أظهر في الدلالة على القدرة وهي مستقبلة بالنسبة لما قبلها فلا بد من تغيير التعبير ليدلعلى المراد".(الألوسي، د ت: ١٤١/٣٠)

أما فعل: ﴿ وَلَا يَخَافُ ﴾ ، فقد جاء بالمضارع؛ لأنه معدّى إلى العقبى المشعرة بالمستقبل، فالسياق هنا

للمستقبل، والمناسب له هو المضارع، وذلك هو المناسب لعظمة الخالق سبحانه، ولسياق التخويف الذي وردت فيه الكلمة.

ومن التناسب اللفظي أيضاً انفراد هذه السورة بمفردات لم ترد في غيرها وهي: (طحاها، دساها، ألهمها، دمدم)، ويحسن بنا بحث مناسبتها لهذه السورة دون غيرها.

فأما كلمة ﴿ طَحَىٰهَا ﴾ فقد قيل هي بمعنى دحاها الواردة في النازعات، يقول ابن عاشور: "وطَحْوُ الأرض: بسطها وتوطئتها للسير والجلوس والاضطجاع... وهو مرادف (دحَا) في سورة النازعات" (ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٦٨/٣٠)، ولو سلمنا بذلك فما مناسبة الطاء في سورة الشمس، والدال في سورة النازعات؟

إذا دققنا في المعاني التي ذكرها المعجميون عن مادة (دحا) وجدنا أنها تأتي بمعنى: البسط، والامتداد، والتوسيع، والتسوية، والرمي، والدفع، والإزاحة (ابن منظور، د ت، مادة (دحا))، أما مادة (طحا) فتدور معانيها حول: البسط، والامتداد، والرمي، والدفع، العظم، والضخامة، والذهاب البعيد، والارتفاع، والالتصاق"(ابن منظور، د ت، مادة طحا)، وبناء على ما سبق نجد أن المادتين اتفقتا على عدد من المعاني هي: البسط، والامتداد وهما متقاربان، ويقرب منهما: التسوية، والتوسيع، كما اتفقتا في معنى الرمي، ومعنى الدفع.

وانفردت (دحا) بمعنى: الإزاحة. كما انفردت (طحا) بمعاني: العظم والضخامة، والذهاب البعيد، والارتفاع، والالتصاق.

وفي ظني أن ذلك كافٍ للتفريق بينهما، فهما يشتركان في تصوير توسع الأرض وبسطها وتسويتها ومدها، ويختلفان في تأثيرهما في ذلك، فالدحو قد يشير إلى رمي شيء ما، وإلى تحريك شيء ما، وأظهر ما ذكر في هذا الشيء أنه الحجارة، كما ورد "في حديث ابن عمر فدَحَا السَّيْلُ فيه بالبَطْحاءِ أَي رَمَى وأَلْقَى...ودَحا المَطَرُ الحَصَى عن وجه الأَرض دَحْواً نَزَعه والمطر الداحي يَدْحَى الحَصَى عن وجه الأَرض يَنْزِعُه... ويقال للاَّعِب بالجَوْز أَبْعِدِ المَرْمَى وادْحُه أي ارْمِهِ". (بن منظور، د ت، مادة (طحا))

وأما الطحو فيشير زيادة على معاني التسوية والبسط والدفع والرمي إلى العظم والضخامة، والارتفاع والالتصاق، وقد يدل ذلك على تصوير عظم جرم الأرض، ويكون مرد ذلك إلى التراكم الذي يشير إليه الالتصاق، كما قيل: "طَحَّى البعيرُ إلى الأَرض إِمّا خِلاءً وإمّا هُزالاً أَي لَزِقَ بها"(ابن منظور، د ت، مادة (طحا))، وهو يؤدي إلى الارتفاع الذي يتنامى ويذهب بعيداً في العلو، وأما الرمي فقد جاء معدى بالباء، وخص بالكرة فقيل: "وطحا بالكرة رمى بها" (الزبيدي، د ت، مادة (طحا))، ويمكن أن يشير إلى ضخامة الكرة الأرضية وكأنها كرة مرمية في هذا الفضاء تسبح فيه بأمر ربها.

تقول الباحثة هدى الزيدي: "ومن المعاني والاستعمالات التي ذكرها أهل المعاجم في طحا مجيء الطاحي بمعنى المرتفع كما جاء في يمين بعض العرب: (لا والقمر الطاحي) أي: المرتفع...ومعلوم عند أهل العلم أن الأرض مرفوعة من غير عمد كما رفع الله السماوات، وقد شاهدها رواد الفضاء وهي تسبح في الفضاء، فهذا معنى آخر يضيفه معنى طحا في هذه الآية... ومن هنا يتبين أنه برغم وجود ترادف بين الفعلين (دحا) و(طحا) لكن هذا الترادف ليس تاماً فكل منهما يحتوي على معانٍ قد لا

تكون في الآخر، وإنّ كلاًّ من الفعلين قد استعمل مرة واحدة في القرآن الكريم، ومن دقة استعمالاته أن جعل كلّاً منهما، في موضع يدل عليه ويتناسب مع سياق الآية".(الزيدي، ١٤٢٥: ١٤١)

ومن حيث الجانب الصوتي نجد أن الفعلين يختلفان في حرف واحد، هو الحرف الأول، وبالنظر في ذلك نجد أن الطاء والدال يتفقان في المخرج، فهما يخرجان من "طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا،...وتسمى نطعية لخروجها من نطع الفم أي غاره، ونهاية تجويفه"(المصري، ١٤٢٥: ٥٥)، ويختلفان من حيث القوة حيث إن "أقوى الحروف الهجائية: الطاء لكون جميع صفاتها قوية"(المصري، ١٤٢٥: ٦٧)، وهي: الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق والإصمات والقلقلة، وصفات الدال: الجهر والشدة والاستفال والانفتاح والاصمات والقلقلة، فالطاء أقوى منها في الاستعلاء والإطباق، وهي أعلى مراتب الحروف المفخمة، ولعل هذا يفسر كثرة معاني (طحا) موازنة بـ(دحا)، بل حتى صفات الطاء تلتقي كثيراً مع معاني الطحو من العلو والعظمة.

كما نجد كلمة ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ التي لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن، وهي تعني: "إلقاء الشيء في الروع، ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى وَجهة الملأ الأعلى"(الأصفهاني، ١٤١٢: ٧٤٨)، والمراد هنا أنه سبحانه "يلهم الفجور والتقوى للنفس، والفجور يكون بواسطة الشيطان، وهو إلهام وسواس، والتقوى بواسطة ملك، وهو إلهام وحي"(ابن تيمية ، ١٤١٨: ٥٢٩/١٧)، و"الإلهام الإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم"(ابن القيم، ١٣٩٨: ٥٥/١)، بل هو توفيق من الله لهذه النفس بالخير أو الشر، بإلقاء شئفيها يبعثها على فعل أو ترك(المناوي، ١٣٥٦: ٤٣٣/٢)، وبهذا يكون الناس سواسية أمام الاختيار وما يترتب عليه من مسؤولية ومحاسبة، وفي الوقت ذاته لا يخرجون عن قدَر الله ومشيئته.

ويلمح ابن عاشور دقة دلالة هذه الكلمة بقوله: "وإيثار هذا الفعل هنا ليشمل جميع علوم الإنسان؛ ولذلك فهذا اللفظ إن لم يكن من مبتكرات القرآن يكن مما أحياه القرآن؛ لأنه اسم دقيق الدلالة على المعاني النفسية، وقليل رواجُ أمثال ذلك في اللغةقبل الإسلام"(ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٦٩/٣٠).

وأما كلمة ﴿ دَسَّىٰهَا ﴾ فيقول عنها المعجميون: "الدال والسين والحرف المعتل أصلٌ واحد يدلُّ على خَفاءٍ وسَتْر. يقال دَسَوْتُ الشّيءَ أدْسُوه، ودسَا يدسُو، وهو نقيض زَكَا"(ابن فارس، ١٤٢٣)، و"الدَّسُّ إدخال الشيء من تحته...وهوالإِخْفاءُ، ودَسَسْتُ الشيء في التراب أَخفيته فيه"(ابن منظور، د ت، مادة (دسس))، "والدَّسّاسُ: حَيَّةٌ خَبِيثَةٌ أَحْمَرُ كالدَّمِ مُحَدَّدُ الطَّرَفِيْنِ، لا يُدْرَى أَيُّهما رأْسُه، غلِيظُ الجِلْدةِ لا يأْخُذ فيه الضَّرْبُ وليسَ بالضَّخمِ...والدَّسِيسُ: إِخْفَاءُ المَكْرِ" (الزبيدي، د ت، مادة (دسس)).

ومن خلال ماسبق يتضح أن معاني الكلمة تدور حول الإخفاء، والمكر، والخبث، وأن الدسّ معنى مذموم وهو في مقابل التزكية الممدوحة، ويبقى المعنى الأول هو الأصل، وعليه يكون معنى دساها: "أي أخفاها، أو أغْمَضها. وهذا هو المعوَّل عليه"(ابن فارس، ١٤٢٣)، ويرى ابن عاشور معنى آخر فيقول: " ومعنى: (دساها) حال بينها وبين فعل الخير"(ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٧١/٣٠).

وبناء على ماسبق يمكن القول إن هذه المفردة جاءت ضمن حيز المقسم عليه، الذي هو موضع الاهتمام، والقسم كله مبني على معاني النور والضياء، والرفعة والبناء، وكذلك النفس فهي إما تشرق وتضيء وتعلو، وذلك بالتزكية، وإما أن تظلم وتسفل، وخير ما يصوّر تلك المعاني الفعل دسّاها، بكل معانيه التي ذكرناها.

ومن الكلمات التي اختصت بها السورة الفعل: (دمدم)، وقد سبق بيان معانيه، وأنها تدور حول: الإطباق، واللطخ، والاكتساء بالشحم، والدفن، والغضب، والكلام المزعج[1]، ولعله يتضح هنا شيء من التناسب بين من دسّ نفسه وأخفاها بالمعاصي، وبين العذاب الذي حل به، فهو من جنس عمله، إنه عذاب فيه تغطية ودفن وإطباق، فإذا كان ماسبق وصفاً لحال النفس، فهذا وصف لحال الجسد، وبهذا اجتمع على هذه النفس التي اختارت الفجور ظلام الداخل والخارج.

ثانيًا: تناسب التراكيب

ونقصد بذلك كل ما يتصل بالتركيب من تقديم وتأخير وحذف وذكر وغير ذلك من صور التشكيل اللغوي، الذي تأتي عليه تراكيب اللغة.

ولعل أول ما يلفت النظر مجيء القسم على هذا النمط الوارد في السورة، فقد قال سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ولم يقل جلت قدرته: (وضحى الشمس)، وقد أعطى هذا التكرير لـ(واو) القسم المشيرة إلى فعل محذوف، تقديره: أقسم إلى انفراد كل من الكلمتين بالقسم على حدة، مع ما بينهما من العلاقة، فالضحى أقوى سلطان الشمس، والضحى زمان، والشمس جرم، يقول القرطبي(توفي سنة ٦٧١هـ):"وهو قسم ثانٍ وأضاف الضحى إلى الشمس؛ لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس"(القرطبي، د ت: ٧٢/٢٠).

فكان العدول عن تركيب الإضافة إلى تركيب التكرير؛ للتنبيه على فضيلة زمن الضحى، يقول الرازي: "واعلم أنه تعالى إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح"(الطبرستاني، ١٤٢١: ١٧٢/٣١).

وكذلك ما جاء على هذا النمط من التركيب، فالمراد الإقسام بأمرين لهما اتصال ببعضهما، ولو جاء التركيب بالإضافة لما تحقق ذلك.

ومما يلفت النظر أيضًا التقييد، فقد كثر وروده في هذه السورة، وقد جاء بالشرط (إذا)، وفيه تنبيه لبيان أهمية القيد في المقيَّد، فتلو القمر هو بؤرة الاهتمام هنا، وكذلك تجلية النهار، وكذلك غشيان الليل، مع بقاء قيمة المقيَّد، ويكون المراد لفت النظر إلى آية القمر، والنهار، والليل بصورة عامة، وإلى خصيصة خاصة في كل منها، هي أظهر ما ينبغي الالتفات إليه.

وعند التدقيق في هذه القيود نجد أنها أشارت إلى معانٍ ودلالات قد تخفى إلا بالتأمل، فتلو القمر للشمس قد يراه الناس أمرًا عاديًّا، لكنّ التقييد به يشير إلى ضرورة التأمل في صور ذلك التلوّ، من ذلك تلوّه لها في استهلاله، "فالهلال يظهر للناظرين عقب غروب الشمس ثم يبقى كذلك ثلاث ليال، وهو أيضاً يَتلو الشمس حين يقارب الابتدار، وحين يصيربدراً، فإذا صار بدراً صار تُلوّه الشمس حقيقة؛ لأنه يظهر عندما تغرب الشمس، وقريباً من غروبها قبله أو بعده، وهو أيضاً يضيء في أكثر ليالي

(١) انظر كل ذلك في: مفاتيح الغيب ٣١/ ١٧٧.

الشهر جعله الله عوضاً عن الشمس في عدة ليال في الإنارة، ولذلك قُيّد القسم بحين تلوه لأن تلوه للشمس حينئذ تظهر منه مظاهر التلوّ للناظرين، فهذا الزمان مثل زمان الضحى في المقسم به، فكان بمنزلة قَسَم بوقت تُلوّه الشمس، فحصل القسم بذات القمر وبتلوه الشمس"(ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٦٦/٣٠).

وكذلك سائر التراكيب، فقد "قُيد القَسَم بالنهار بقيد وقت التجلية إدماجاً للمنة في القسم"(ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٦٧/٣٠)، وكذلك "تقييد القسم بالليل بوقت تغشيته تذكيراً بالعبرة بحدوث حالة الظلمة بعد حالة النور"(ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٦٦/٣٠).

وأما التقديم فمن صوره: تقديم القسم بالشمس والبدء بذلك، ولعل سر ذلك أنها أعظم النيرات وأظهرها للناس، وأكثرها لهم نفعًا، كما نجد تقديم النهار على الليل، والسماء على الأرض، ذلك أن تهيئة الأرض لمنافع الناس جاء بعد بناء السماء، وقد قيل: "إنما أخر هذا عن قوله: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾، لقوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾[1]" (الطبرستاني، ١٤٢١: ١٧٤/٣١).

كما نجد تقديم الفجور على التقوى في إلهام النفس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾، مع أن الفطرة هي الحق، ومناسبة ذلك: "للدلالة على أنه بقدرته وإرادته أيضاً، ولا ينافي مدخلية قدرة العبد كسباً"،(كوكصو، ١٤٢٨:٣٩٥) وقيل بل "تقديم الفجور لمراعاة الفواصل"(أبو السعود ، د ت : ١٦٤/٩)"، ويقول ابن عاشور إنّ "تقديم الفجور على التقوى مراعًى فيه أحوال المخاطبين بهذه السورة وهم المشركون، وأكثر أعمالهم فجور ولا تقوى لهم، والتقوى صفة أعمال المسلمين وهم قليل يومئذ"(ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٧٠/٣٠)، وقيل: "قدّم الفجور على التقوى؛ لأن إلهامه بهذا المعنى من مبادئ تجنبه وهو تخلية، والتخلية مقدمة على التحلية"(الألوسي، د ت، ١٤٣/٣٠).

والذي يظهر أن المراد هو التنبيه على أن استعداد النفس للفجور أقوى، لأن المغريات به أكثر، ودعاة الشر إليه أظهر، ومصداق ذلك مارواه عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً، ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: هذه سبل، قال يزيد: متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[2]"،(ابن حنبل، دت: ح ٤١٤٢)[3] فيكون ذلك وصفاً للواقع وفيه حينئذ من التخويف والوعظ ما لا يخفى، ويصدّق ذلك فعل عاقر الناقة رغم وجود الناصح ووضوح الآية.

وفي المقابل قدّم الفلاح على الخيبة، فكان مخالفاً لتقديم الفجور على التقوى، ولعل مناسبة ذلك أن هذا الأخير توجيه، والأول وصْف، فالأول وصْف لحالة المشركين، أو حالة المخلوقين بصورة عامة، فالفجور فيه أظهر، وأما الحالة الثانية فهو حكم من الله وتوجيه، لذا قُدِّم المطلوب والمندوب إليه وهو الفلاح والتزكية، وقيل بل"قدّم الفلاح على الخيبة لمناسبته للتقوى، وأردف بخيبة من دسى نفسه

(١)

(٢) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٣)وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، ١/ ٤٣٥.

لتهيئة الانتقال إلى الموعظة بما حصل لثمود من عقاب على ما هو أثر التدسية" (ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٧١/٣٠).

ومن حيث الذكر والحذف، لا نجد كثيراً من صور الذكر، وإن كنا لا نعدم ذلك، فعلى سبيل المثال فقد جاء (قد) "مع الفلاح ثم تكرر مع الخيبة، وذلك "لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه، والإيذان بتعلق القسم به أيضاًأصالةً، أي: خسر من نقصها وأخفاها بالفجور". (أبو السعود، د ت: ١٦٤/٩).

كما تكرر لفظ الجلالة مرتين في قوله تعالى: ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾، فكان لتكرار لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهِ ﴾ دلالة خاصة لا يقوم بها الضمير لو قيل: ناقته وسقياها، وذلك لأن ذكر لفظ الجلالة في هذين الموضعين المتجاورين يعطى دلالة أن القائل هو رسول من عند الله، وأن الناقة أيضًا من عند الله، فكان في ذلك من تعظيم الأمر ما لا يخفى، مع ما في ذلك من جلاء المعنى، فلو قيل: ناقته وسقياها؛ لربما توهّم أن المراد الرسول لا الله جلت قدرته، يقول البقاعي: "وزاد في التعظيم بإعادة الجلالة: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الجبروت كله، فلا يقر من انتهك حرمته واجترأ على ما أضافه إليه، ولهذا أعاد الإظهار دون الإضمار"(البقاعي، ١٤١٨: ٤٤٣/٨).

ومن صور الذكر التفصيلُ بعد الإجمال، وهذا نجده في قوله تعالى: ﴿ وَسُقْيَهَا ﴾ بعد ذكر الناقة، فإن السقيا بعض شأنها، وهو داخل ضمنًا في التحذير العام من المساس بها في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾، لكن في تخصيص ذلك تناسب لطيف بين حالة خاصة في الناقة وهي شربها الماء، وما يثير غيظهم منها، فقد قيل: إنها كانت تشرب الماء كله، فكان لها يوم، ولهم يوم، كما قال سبحانه: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1]، فكانت سقياها إحدى أهم ما ينقمون به عليها، وقد جعلوه ذريعة للتخلص منها، لذا أُفرد بالذكر، كما أن إفراده يشير إلى أن التعرض لسقياها قد يعرضها للخطر، لما للماء من أهمية كبرى في حياتها وبقائها.

وأما الحذف، فمنه ماورد في قوله تعالى: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾، فإنه منصوب على التحذير والتقدير: احذروا ناقة الله، وفي هذا الحذف مع فضيلة الإيجاز إبراز للمحذَّر منه أكثر من الفعل، كما أن المقام يقصر عن التطويل، لذا "قال مشيراً بحذف العامل إلى ضيق الحال عن ذكره لعظيم الهول، وسرعة التعذيب عند مسها بالأذى"(البقاعي، ١٤١٨: ٤٤٣/٨).

ومن ذلك أيضاً حذف فعل القسم مع واو القسم، فإنّ "واو القسم مطرح معها إبراز الفعل اطراحاً كلياً، فكان لها شأن خلاف شأن الباء، حيث أبرز معها الفعل وأضمر، فكانت الواو قائمة مقام الفعل"[2].

ومن الحذف حذف لام القسم في الجواب: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ فلم يقل: لقد، وذلك "لأن الكلام طال فصار طوله عوضاً منها"(الطبرستاني، ١٤٢١: ١٧٢/٣١).

ومن صور التركيب الالتفات قوله تعالى: ﴿أَشْقَىٰهَا ﴾ حيث جاء بالمفرد ثم خاطبهم بالجمع، فقال: ﴿ لَهُمْ ﴾، ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾، ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾... وفي ذلك إظهار لجريمة

(١)سورةالشعراء: ١٥٥، ١٥٦.

(٢)الكشاف ٧٦٢/٤.

ذلك الواحد، مع الإشارة إلى موافقة القوم له بعدم الانصياع لتوجيه نبي الله صالح عليه السلام بعدم إيذاء الناقة، لكنهم كذبوه وقعروا الناقة، وأخذوا برأي ذلك الأشقى، "والجمع على تقدير وحدته، لرضا الكل بفعله، وقال قتادة: بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم"(أبو السعود، د ت: ١٦٥/٩)، ويقال بل "أعيدت عليهم ضمائر الجمع باعتبار أنهم جمع، وإن كانت الضمائر قبله مراعىً فيها أن ثمود اسم قبيلة" (ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٧٤/٣٠).

المبحث الثالث: التناسب المعنوي

والمقصود هنا التناسب في المعنى، ويشمل هذا المبحث صوراً متعددة من التناسب تتعلق باسم السورة، والمقطع والمطلع، والقَسَم، والقصة.

أولاً: اسم السورة

يقول ابن عاشور: "سميت هذه السورة في المصاحف وفي معظم كتب التفسير (سورة الشمس)... وعنونها البخاري سورة ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ بحكاية لفظ الآية"(ابن عاشور، ١٩٩٧: ٣٦٥/٣٠).

وكلمة (الشمس) هي أول كلمة في السورة؛ لذا سُمّيت بها كما هو شأنُ كثيرٍ من سور القرآن[١]، وزيادة على ذلك نجد أن الشمس هي أهم الأجرام المذكورة في قضية النور، وهي من أكثر تلك الكواكب نفعًا للناس، والنور يمثل الهداية، فلما كانت السورة في محورها تتحدث عن ثنائية الهدى والضلال؛ وكان "المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي"(الطبرستاني، ١٤٢١: ١٧١/٣١)، ناسب أن يكون اسم السورة هو رمز الهداية والنور وهو الشمس، يقول البقاعي: "واسمها الشمس واضح الدلالة على ذلك بتأمل القسم والمقسم عليه بما أعلم به وأشار إليه"(البقاعي، ١٤١٥: ٤٣٧/٨).

ولعلنا نلحظ أيضاً أن كل ما ذكر في هذه السورة من الآيات والنعم، قد جاء في أعظم صوره وأدلها على فضل الله على خلقه، ولما كانت الشمس هي الأظهر في ذلك؛ ذكرت أولاً وسميت بها السورة، كما أن الشمس على عظمها في جرمها وفي نفعها، لم ترد في قَسَم غير هذا.

ثانيًا: المطلع والمقطع

يظهر التناسب في السور المتجاورة في مقاطعها ومطالعها، وقد يظهر أحياناً في المفردات والألفاظ، بل وفي المعاني والموضوعات أيضاً، أو في كل ذلك.

مقطع سورة البلد ومطلع سورة الشمس

لما ختمت سورة البلد بنهاية الظالمين الذي جحدوا حقوق الضعفاء وحق ربهم، وذُكر مآلهم الناري ﴿ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴾[٢]، ناسب أن تفتتح السورة هنا بما يلفت

(١) تقول د. منيرة الدوسري"سميت سورة الشمس، لافتتاحها بقسم الله عز وجل بالشمس المنيرة المضيئة في قول تعالى: (والشمس وضحاها)" انظر: أسماء سور القرآن وفضائلها، د. منيرة الدوسري (دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٦هـ) ٥٥٣، ويقول الزحيلي: "سميت سورة الشمس لافتتاحها بالقسم الإلهي بالشمس المنيرة المضيئة لآفاق النهار" انظر: التفسير المنير للزحيلي (٣٠/ ٢٥٥)

(٢) سورة البلد: ٢٠.

الأنظار إلى عظم نعيم الله وفضله، في كل الأزمنة (ليلاً ونهارًا)، والأمكنة (السماء والأرض)، والتذكير بمآل المكذبين الجاحدين لفضل الله عليهم من الأمم السابقة.

وقد تكون سورة البلد كالتهيئة لسورة الشمس، فإنه"لما تقدم في سورة البلد تعريفه تعالى بما خلق فيه الإنسان من الكبد، مع ماجعل له سبحانه من آلات النظر، وبسط له من الدلائل والعبر، وأظهره في صورة من مَلك قياده وميز رشده وعناده... أقسم سبحانه في هذه السورة على فلاح من اختار رشده واستعمل جهده... وخيبة من عاب هداه فاتبع هواه"(الغرناطي، ٣٦٤: ١٤١٠).

وبنظرة عامة يظهر كيف كان القسم في البلد بأفضل الأماكن الأرضية، وفي الشمس بأعظم العوالم السماوية، وفي ختام البلد بيان لعاقبة الكفار في الآخرة، وفي الشمس بيان لعاقبتهم في الدنيا[1].

ومن صور التناسب أيضاً أنه سبحانه: "لما أثبت في سورة البلد أن الإنسان في كبد، وختمها بأن من حاد عن سبيله كان في أنكد النكد، وهو النار المؤصدة، أقسم أول هذه على أن الفاعل لذلك أولاً وآخراً هو الله سبحانه؛ لأنه يحول بين المرء وقلبه، وبين القلب ولبه"(البقاعي، ١٤١٥: ٤٣٧/٨).

وقد يكون من المناسبة أيضًا أنّ آخر كلمة ختمت بها البلد هي (النار المؤصدة)، وهي مصدر الحرارة الهائل يوم القيامة، وكذلك بدئت السورة هنا بالشمس وهي مصدر الحرارة الهائل في الدنيا، ولكن ما ذكر هناك نقمة، و ما ذكر هنا نعمة، في إشارة أن من شكر النعمة نجا من النقمة، والعكس صحيح، يقول البقاعي ملمحاً إلى بعض هذا المعنى إنّ "أول المقسم به مُذكِّر بما ختم به آخر تلك من النار"(البقاعي، ١٤١٥: ٤٣٧/٨).

كما جاء في نهاية سورة البلد بيان كفر الكفار بآيات الله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ، فأقسم الله سبحانه ببعض تلك الآيات في بداية سورة الشمس، وكلها آيات تشير إلى الوضوح والنور والبناء والفائدة، وكلها تذكر بالخالق وبفضله، وتدعو لضرورة النظر والتفكر.

مطلع سورة الشمس ومقطعها

هناك تناسب داخلي في كل سورة يربط أولها بآخرها، ألا وهو التناسب بين مطلع السورة ومقطعها، وقد قيل: "ومن البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يتأنق في أول الكلام، لأنه أول ما يقرع السمع، ...وقد أتت فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها"(الأبياري، ١٤٠٥: ٢٧٩/٢).

ومن ذلك سورة الشمس التي بُدئت بأطول قسم في القرآن، فإنه أوجد من الرهبة والإجلال ما لا يخفى، كما أنه شوّق لمعرفة المقسم عليه، وماذا عساه يكون.

وأما عن تناسب هذا المطلع لمقطع السورة فيمكننا القول: إن السورة بُدئت بالقسم بهذه الآيات العظيمة، بداية بالشمس ونهاية بالنفس، وخُتمت ببيان شؤم الذنب وعاقبته، كما أن هذه المخلوقات الهائلة في مطلع السورة تخبر عن خالق عظيم، له مقاليد السماوات والأرض، ومن"له هذه الأفعال الهائلة التي سوى بين خلقه فيها،

---

(١)انظر: تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م) ٨/ ٤٧٣.

وهذا التدبير المحكم، هو بحيث لا يعجزه أمر ولا يخشى عاقبة" (البقاعي، ١٤١٥: ٤٤٤/٨)، لذا قال سبحانه في ختام السورة: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾، "أي فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعة الدمدمة من أحد، قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد" (القرطبي، د ت: ٧٩/٢٠).

ثالثًا: القسم

التناسب في القسم له صورتان: الأولى في المقسم به، والثانية في علاقته بالمقسم عليه.

التناسب في المقسم به:

اشتملت هذه السورة على أطول قسم في القرآن، حيث بلغ "أحد عشر قسماً...الشمس، وضحى الشمس، والقمر، والنهار، والليل، والسماء، وبناؤها، والأرض، وبسطها، ثم النفس، وما ركّبفيها"(الخطيب، د ت: ٦٠/٣)، على اختلاف في المقصود من (ما) أمصدرية كما ذكر هنا أم موصولة، وهذا لن يغير في عدد الأقسام، لكنّه يؤثر في عدد المقسم به، فهو على الأول أحد عشر، وعلى الثاني تسع ؛لأن المراد بـ(ما) الموصولة واحد وهو الله سبحانه.

وقد سبق ذكر شيء من تناسب ألفاظ القسم وأنه بدئ بالشمس وختم بالنفس، وكأنه ربط للعوالم الخارجية مع النفس الداخلية، يقول ابن عاشور: "ابتدئ بالشمس لمناسبة المقام إيماءً للتنويه بالإسلام؛ لأن هديه كنور الشمس لا يترك للضلال مسلكاً، وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشمس في الأفق، واتبع بالقمر لأنه ينير في الظلام كما أنار الإسلام في ابتداء ظهوره في ظلمة الشرك، ثم ذكر النهار والليل معه لأنهما مثل لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك وذلك عكس ما في سورة الليل...ومناسبة استحضار السماء عقب ذكر الشمس والقمر، واستحضار الأرض عقب ذكر النهار والليل؛ واضحة، ثم ذكرت النفس الإنسانية لأنها مظهر الهدى والضلال وهو المقصود"(البقاعي، ١٤١٥: ٣٦٧/٣٠).

ومن أظهر ما في هذا القسم تلك الثنائيات المتضادة التي تهيء لبيان حقيقة النفس وتقلباتها.

التناسب بين المقسم به والمقسم عليه:

إذا كنا قد عرفنا عناصر القسم، وأنها تجمع بين ثنائيات النور والظلام، والعلو والدنو، فليس من الصعب أن ندرك مناسبة الإقسام بكل ذلك في أطول قسم في القرآن على فلاح النفس أو خيبتها، إنه لأمر عظيم حقًّا أن يقسم الخالق بكل هذه المخلوقات العظيمة على حالة هذه النفس، وقليل من الناس من يقدر ذلك.

وهذا التعظيم والحفز مطلوب في استشعار عظمة هذه النفس وخطورتها، ويبقى القسم بهذه العناصر المتتالية يهيئ المتلقي لأمر جلل وعظيم، ويصحح عنده قيمة طالما تناساها أو لم يعرها انتباهه.

ويظهر لي أن هذه الأقسام جاءت بما يَعْظُم في النفوس وما لا يستطيع أحد تجاهله، على أمر فيه صلاح العباد أو هلاكهم، فأقسم سبحانه بالشمس وأثرها، وبالقمر وفعله، وبالنهار وفعله، وبالليل وفعله، وكل ذلك لله لا للشمس ولا للقمر ولا لغيرهما، ولكن نُسبت هذه الأفعال لهذه المخلوقات لوجود ارتباط وسبب بينها، ولو أراد الله أن يتغير هذه النظام كله لحصل، ومن ذلك طلوع الشمس من مغربها، ثم لَمّا ذكر السماء ذكر ما يخص شكلها وهو بناؤها، وكذلك الأرض ولم يذكر لهما فعلاً.

ولو تأملنا كل ذلك لوجدنا أنه سبحانه أقسم بالمخلوق وأثره وفعله، فلما ورد ذكر النفس التي هي المقصودة أقسم بها وبخلقه لها، أو بخالقها، وبتسويته لها في أحسن خلقه، أو بمن سواها، وقد يشير ذلك أولاً إلى ظاهر تلك النفس، كما ذكر ذلك مع ما هو أعظم منها وهو السماء والأرض، ثم بيّن سبحانه أنه هو الذي أوجد فيها الفجور والتقوى، وهذا يمثل فعلها وما هو في مكنونها، وهذا يتناسب مع ماذكر من خلقه لأثر الشمس وأفعال القمر والنهار والليل.

فعُلِم من ذلك أن خالق هذه النفس هو الله، وأن خالق أفعالها هو الله، وأن من يُقَدِّر عليها الفجور والتقوى هو الله، مع نسبة الفعل إليها في قوله سبحانه: ﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ ؛ لأنها فعلته مختارة، وعليها إذا آمنت بذلك أن تدرك أن خلاصها بيد ربها، فلا منجي لها سواه، يقول ابن تيمية (توفي سنة ٧٢٨هـ): "فإذا كان الضلال في القدر حصل تارة بالتكذيب بالقدر والخلق، وتارة بالتكذيب بالشرع والوعيد، وتارة بتظليم الرب[أي نسبة الظلم إليه]؛ كان في هذه السورة رد على هذه الطوائف كلها، فقوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ إثبات للقدر بقوله: ألهمها، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة و المتقية وإثبات للتفريق بين الحسن والقبيح والأمر والنهي بقوله: ﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ "(ابن تيمة، ١٤١٨: ١٦/٢٤٣).

إن المراد العام - والله أعلم- من هذه السورة بيان مسؤولية الإنسان عما يفعل مع بيان أن كل أفعاله لا تخرج عن علم الله وقدره، وهذا أمر متكرر في أقسام القرآن، ففي سورة الليل قَسَمٌ بالليل والنهار، وبخلق هذه النفس على تنوّع أعمال المكلفين بين طريق الحسنى والعسرى، وفي سورة الذاريات قسَم بالخيل في أحوالها المختلفة التي يظهر منها حسن شكرها وطاعتها لسائسها ومربيها؛ على عظم جحود الإنسان لنعم ربه عليه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة العاديات: ٦]، وفي سورة العصر إقسام بالعصر على خسران الإنسان إلا من أنقذ نفسه بالإيمان والعمل الصالح.

ومما يلفت النظر أيضاً في هذه السورة (الشمس) طول القسم وتنوع المقسم به وعِظَمه، مما لم يوجد له مثيل في أقسام القرآن، وقد يفسر هذا أن المقسم عليه هنا هو النفس وتسويتها، وتقدير الفجور والتقوى لها، وتعلق فعل ذلك بالعبد، وهو ما يفسره حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم، فـ"عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن الحصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟ قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، وقلت: كل شيء خَلْق الله ومُلْك يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ "(النيسابوري، د ت: ٨/٤٨).

وهذا الفزع هو موضع العظمة، فإن بعض الأفهام لا تدرك عظمة الخالق وإحاطته بخلقه، لذا تجده يقول كيف يكون ذلك، كيف يقدّر عليهم الفجور والتقوى قبل أن يخلقوا، وهو غير ظالم لهم، وهنا يتأمل الإنسان الأقسام التي بدأت بها السورة ليعرف كيف يكون ذلك، فمن خلق هذه الشمس العظيمة، وقدر ضوءها فجعل منه النافع والمهلك، ومن خلق القمر وقدّر منازله، والنهار وتجليته، والليل وظلمته، والسماء وكيف بناها بلا عمد، والأرض وكيف هيئها للعيش والسكنى، وجعلها في مدارها، كل ذلك الخلق العظيم والنظام الدقيق قدّره الله عز وجل قبل خلق هذه المخلوقات، وهي سائرة على ما قدر لا تخرج عنه قدر أنملة، ولو أراد غير ذلك لحصل وهو أيضاً من تقديره سبحانه، أفمن قدّر كل هذا قبل خلقه، وهو سائر على ما قدّر، والخلق على ذلك شاهدون، أفلا يقدر سبحانه على تقدير مآل هذه النفس قبل خلقها، ومعرفة حالها قبل فعلها.

فمن فهم ذلك وأيقن به عظّم ربه، ووقف عند حدوده، وعبده حق عبادته، وهذا هو سبب الخلق، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

ومما يدل على أن هذه النفس هي موضع الاهتمام في هذا القَسَم، أنه أقسم بها عليها، فأقسم سبحانه بقوله: (ونفس) على إلهام هذه النفس الفجور والتقوى، وتأخير الإقسام بها، ليحسن منه التخلص للمقسم عليه، كما أن الإقسام بها يشير إلى عظم دلالتها على قدرة خالقها، وأن ذلك كاف لمن تأمل لليقين بأنه سبحانه قادر على تقدير مآلها قبل خلقها، أما قال سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[2]، "فهذه النفس في تسويتها لتلقي معنيي الخير والشر، واستقبال الإلهام الإلهي للفجور، والتقوى أعظم دلالة على القدرة من تلك الجمادات التي لا تبدي ولا تعيد، والتي لا تمسك سلباً ولا إيجاباً" (الشنقيطي، ١٤١٥: ٥٠٤/٨).

ولما كانت النفس متقلبة بين الخير والشر، فمرة تخضع لهذا ومرة لهذا، ناسب أن يكون القسم معها بهذه الأجرام المتغيرة، ولأن الأمر مهم والتذكير به لازم، ناسب أن يكون بأمور متجددة الحدوث، يراها الإنسان يوميًّا في حياته.

"وفي هذه الأقسام نرى ستة منها متزاوجة، متقابلة... فالشمس يقابلها القمر، والنهار يقابله الليل، والسماء تقابلها الأرض ثم نرى الشمس، والنهار، والسماء، يقابلها على التوالي: القمر، والليل، والأرض، و إذ نبحث عن مقابل للنفس، لا نجد هذا المقابل، الذي يستدعيه سياق النظم في ظاهره، فإذا أمعنا النظر قليلاً، نجد أن النفس تضمّ فى كيانها شيئين متقابلين، هما: الفجور والتقوى، أو إن شئت فقل: الشمس والقمر، أو النهار والليل، أو السماء والأرض، ففي كيان النفس نور وظلام، ونهار وليل، وعلوّ وسفل"[3].(الخطيب، د ت: ٦١/٣).

وإنني لألمح صورة أخرى من التناسق والتناسب، وخيطاً رابطاً بين كل أجزاء السورة، وذلك هو صور النعم وشكرها أو جحدها، وهو معنى متكرر في القرآن يتقرر في

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة فصلت: ٥٣.

(٣)التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٦١.

أول سورة وهي الفاتحة، وتثنى به آيات القرآن وسوره، فهذه الأقسام كلها من صور النعم على الإنسان ليعرف بها حق الله عليه، فهو"تعالى ينبه عباده دائماً بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة، حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها؛ لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى"(الطبرستاني، ١٤٢١: ١٧١/٣١).

وأعظم ما يلفت النظر هو الصورة، لذا يكثر الإقسام بالمحسوسات، "ولا شيء من أساليب الكلام أصلح للتصوير من القسم...فلما أراد الله أن يوشي عنوان السور بألوان الصور بدأها بأقسام خاصة"(الفراهي، د ت: ٥٧).

رابعاً: القصة

ما ذكر من قصة نوح عليه السلام هنا محدد في قصة الناقة وما ترتب على ذلك من عذاب، ولو تأملنا ذلك لوجدنا الأمر يدور حول التعامل مع تلك الآية والنعمة وهي الناقة، فقد سماها الله آية في قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً ﴾[1].

فما ذكر في السورة تأكيد لضرورة النظر في آيات الله، والاعتراف بنعمه، وشكره عليها، وهذا ظاهر في القسم والمقسم عليه، فناسب أن يذكر من قصة نوح عليه السلام ما يتسق مع ذلك، فلم تذكر مدة دعوته، ولا حاله مع زوجه أو ولده، بل ذكرت الناقة لأنها آية ونعمة، والآية تحتاج إلى تأمل وتدبر، والنعمة إلى اعتراف وشكر، فكانت ناقة صالح عليه السلام آية ظاهرة كالشمس يرونها عيانًا بيانًا، يستفيدون من خيرها ولبنها، ونبي الله صالح عليه السلام يدعوهم إلى الحق، فاجتمع لهم من جلاء الحق ووضوحه ما لم يجتمع لغيرهم، لكنهم كذبوا وطغوا وأظلمت نفوسهم، وعقروا الناقة، فسوى الله بهم الأرض التي ذكر طحوها من قبل.

ويرى البقاعي أنه"خصهم؛ لأن آياتهم مع أنها كانت أوضح الآيات في نفسها هي أدلها على الساعة، وقريش وسائر العرب عارفون بهم لما يرون من آثارهم ويتناقلون من أخبارهم"(البقاعي، ١٤١٥: ٤٤٢/٨).

ولابن تيمية توجيه آخر يتعلق بنوعية الجرم والعذاب، يقول فيه:"هذا والله أعلم من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ فإنه لم يكن فى الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد و مدين و قوم لوط وغيرهم... فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التى جعلها الله آية لهم؛ فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره و نواهيه و عقر عباده و سفك دماءهم كان أشد عذاباً" (ابن تيمية، ١٤١٨: ٢٤٩/١٦)[2].

ومن صور التناسب ما ذكره ابن القيم (توفي سنة ٧٥١هـ) من أنه "ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة والشمس وضحاها؛ لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية وإلى الفاجرة الضالة الغاوية، وذكر فيها الأصلين: القدر والشرع فقال: ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا ﴾ "(ابن القيم [ب]، د ت: ٩٢/١).

ومناسبة اقتصاره على مجرد التحذير بكلمتين في هذه القصة ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴾ "لأن هذه الإشارة كافية مع

(١) سورة هود: ٦٤.

(٢) وانظر أيضاً: التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم [ج]ص ١٩.

الأمور المتقدمة"(الطبرستاني، ١٤٢١: ١٧٧/٣١).

إنها صورة لجحد الإنسان وكفره بنعمة خاصة، وآية عظيمة هي الناقة، لكن هذه الصورة من الجحد تتكرر من هذا الإنسان كثيراً، مع أنه يتقلب يوميّاًفي نعم الله الكثيرة التي تحيط به في الأرض أو السماء، أو التي تشتمل عليها نفسه، فهو مخلوق في أحسن تقويم، كل ما حوله من هذه المخلوقات مسخر له.

نخلص من هذا إلى أنه قسم عظيم للتنبيه والعظة والتأمل في عظم خلق الله وجليل منته على خلقه، ومقسم عليه وهو النفس المتذبذبة بين الفجور والتقوى، والنموذج الذي جمع كل ذلك (صالح عليه السلام مع قومه)، والنتيجة لقوم عاشوا في رغد العيش فلم يشكروا، بل كفروا فكان هذا مصيرهم، وشواهدهم ظاهرة باقية.

الخاتمة

بعد هذا التحليل لهذه السورة الكريمة، يمكن الخلوص إلى عدد من النتائج، يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً: التناسب الصوتي

- اتفقت الدلالة الصوتية على مستوى الحروف والفواصل والحركات على ظهور قيمة صوت (الهاء) في السورة، مما أشاع جوًّا من السكينة والخشوع والتعظيم.

- تكررت صيغة (فعّل) بوضوح في السورة على المستوى الفعلي، مما دل على التوكيد والتقوية، وهذا يتناسب مع دلالة القسم على هذا المعنى، إضافة إلى معنى الاستدلال.

ثانيًا: التناسب اللفظي

- ساد التعريف في جميع الأسماء الواردة وتنوعت طرقه حسب المراد، ولم ترد إلا كلمة (نفس) بأسلوب التنكير؛ لبيان الشيوع والسعة، وأن الحكم فيها عام شامل.

- وجود التقابل الدائم في ثنائية ظاهرة أظهرتها ألفاظ السورة على مستوى القسم، وعلى مستوى القصة.

- اختصت السورة بكلمات لم ترد في غيرها، وهي: (طحاها، ألهمها، دساها، دمدم) وكلها كانت أفعال، وكلٌّ منها يصوّر معنى لا يقوم به غيره.

ظهر التقييد بوضوح في السورة للربط بين تلك المتباينات التي شاعت في السورة؛ لإظهار عظمة الخالق.

صوّر الحذف في السورة سرعة الأحداث وضيق الزمن عنها.

ثالثًا: التناسب المعنوي

حمل اسم السورة خصيصتين مهمتين، هما: الأوّلية في الذكر، وأنه أعظم المذكورات في القسم.

ارتبطت السورة بسورة البلد قبلها بالموضوع، وهو حالة النفس البشرية بين الخير والشر، وبالإقسام بأشرف الأماكن في الأرض والسماء.

ظهر التناسب بين القسم والمقسم عليه و القصة، في الإقسام بأظهر الآيات على أعظم الأشياء في النفس البشرية، ومُثِّل لذلك بأوضح القصص التي يعرفها العرب.

وختامًا، فإن ما يجمع كل صور التناسب في هذه السورة هو التضاد والتباين، فقد ظهر ذلك في القسم والمقسم عليه والقصة، وكلّ ذلك يدور حول النفع والضر، وهذا كله يؤول إلى الإيمان بعظمة مَنْ خلق ذلك سبحانه.

مسرد المصادر والمراجع

١. **ابن القيم الجوزية**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله. (ت ٧٥١هـ) *بدائع الفوائد*، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرين: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٢. ـــــــــــ *شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل*، تحقيق: محمد النعساني: دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٣. ـــــــــــ [ب]. *مفتاح دار السعادة*، : دار الكتب العلمية، بيروت(د ت)

٤. ـــــــــــ [ج]. *التبيان في أقسام القرآن*. بيروت: دار الفكر، (د ت)

٥. **ابن تيمية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني الحنبلي الدمشقي. (ت ٧٢٨هـ)، *مجموع الفتاوى*، جمع وترتيب: ابن قاسم (١٤١٨هـ).

٦. **ابن حنبل**، أحمد أبو عبد الله الشيباني. (ت ٢٤١هـ)، *المُسند*. القاهرة: مؤسسة قرطبة (د ت).

٧. **ابن عاشور**، محمد الطَّاهر بن محمد بن محمد الطَّاهر. (ت ١٣٩٣ هـ). *التحرير والتنوير*. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧ م.

٨. **ابن فارس**، أبو الحسين أحمد. (ت ٣٩٥ هـ)، *معجم مقاييس اللغة*. تحقيق: عبد السلام هارون. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م.

٩. **ابن منظور**، محمد بن مكرم. (ت٧١١هـ). *لسان العرب*. تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون. القاهرة: دار المعارف، (د ت).

١٠. **أبو الحسن**، حازم بن محمد بن حسن ابن حازم القرطاجني. (ت ٦٨٤هـ). *منهاج البلغاء وسراج الأدباء* تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

١١. **أبو السعود**، محمد بن محمد العمادي. (ت ٩٨٢هـ) *إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم*. بيروت: دار إحياء التراث العربي (د ت).

١٢. **أبو الفتح**، عثمان بن جني الموصلي. (ت ٣٩٢هـ). *الخصائص*، تحقيق: محمد علي النجار. بيروت: عالم الكتب(د ت).

١٣. **أبو زيد**، أحمد. *التناسب البياني في القرآن*، دراسة في النظم المعنوي والصوتي. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٢م.

١٤. **الأبياري**، إبراهيم بن إسماعيل. (ت ١٤١٤هـ)، *الموسوعة القرآنية*. مؤسسة سجل العرب، ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م.

١٥. **الأصفهاني**، أبو القاسم الحسين بن محمد. (ت ٥٠٢هـ). *مفردات ألفاظ القرآن الكريم*، تحقيق: صفوان داوودي. دمشق: دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

١٦. **الآلوسي**، محمود شهاب الدين. (ت ١٢٧٠هـ). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. بيروت: دار إحياء التراث العربي(د ت).

١٧. **الأندلسي**، ابن حيان. (ت ٧٤٥هـ). *تفسير البحر المحيط*. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٨. **أنيس**، إبراهيم. *موسيقى الشعر*. مصر: مكتبة الأنجلو، ط ٣، ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م.

١٩. **البقاعي**، برهان الدين. (ت ٨٨٥ هـ). *نظم الدرر في*

تناسب الآيات والسور. تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥ م).

٢٠. **الثعلبي**، أحمد أبو إسحاق(ت ٤٢٧هـ). *الكشف والبيان في تفسير القرآن*. تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي. بيرت: دار إحياء التراث العربي، ط١٤٢٢، ١ هـ - ٢٠٠٢ م).

٢١. **حريري**، أناهيد عبد الحميد. *التصوير القرآني في جزء عم*، دلالية أدبية تحليلية، جدة: مكتبة كنوز المعرفة، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٦م.

٢٢. **الحسناوي** ،محمد محمود. (ت ١٤٢٨هـ). *الفاصلة في القرآن*. المكتب الإسلامي، دار عمر، ط٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

٢٣. **الخطيب** ،عبد الكريم يونس. (ت بعد: ١٣٩٠هـ). *التفسير القرآني للقرآن* (بدون معلومات نشر).

٢٤. **الخوارزمي**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري. (ت ٥٣٨هـ)، *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*، تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي (د ت).

٢٥. **الدوسري**، منيرة محمد ناصر. *أسماء سور القرآن وفضائلها*. دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٦هـ).

٢٦. **الرازي**، فخر الدين. *مفاتيح الغيب*. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠ م).

٢٧. **الرماني**، أبي الحسن علي بن عيسى. (ت ٣٨٦هـ). *ثلاث رسائل في إعجاز القرآن*. تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام: مصر: دار المعارف، ط٣. (د ت).

٢٨. **الزبيدي**، محمد مرتضى الحسيني. (ت ١٢٠٥هـ) *تاج العروس*. القاهرة: دار الهداية (د ت).

٢٩. **الزحيلي**، وهبة بن مصطفى. *التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج*. دمشق: دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٤١٨ هـ).

٣٠. **الزركشي**،أبو عبد الله بدر الدين. (ت ٧٩٤هـ) *البرهان في علوم القرآن*. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. مكتبة جار التراث (د ت).

٣١. **الزيدي** ، هدى هشام إسماعيل. *الضابط اللغوي في التفسير العلمي للقرآن الكريم*، رسالة دكتوراة (غير منشورة)،جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، قسم اللغة العربية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥ م.

٣٢. **سيبويه** ،أبو بشر عمرو بن عثمان. (ت ١٨٠هـ)، *الكتاب*. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت: دار الجيل، بيروت.

٣٣. **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (ت٩١١ هـ)، *الإتقان في علوم القرآن*. تحقيق: مركز الدراسات القرآنية (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ط١).

٣٤. **الشنقيطي**، محمد الأمين.(ت ١٣٩٣ هـ)، *أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن*. تحقيق: مكتب البحوث والدراسات. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م).

٣٥. **صافي**، محمود بن عبد الرحيم. *الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة*. دمشق: دار الرشيد مؤسسة الإيمان، ط٤، ١٤١٨ هـ).

٣٦. **الطبري**، محمد بن جرير. (ت ٣١٠هـ). *جامع البيان عن تأويل آيات القرآن*. تحقيق: أحمد محمد شاكر.

القاهرة: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م).

٣٧. **العياشي**، محمد. *نظرية إيقاع الشعر العربي*. تونس: المطبعة العصرية، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م).

٣٨. **الغرناطي**، ابن الزبير. (ت ٧٠٨هـ)، *البرهان في تناسب سور القرآن*. تحقيق: محمد شعباني. المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٣٩. **الفراهي**، حميد الدين. (ت ١٣٤٩هـ) *إمعان في أقسام القرآن*. تعليق: محمد سميع مفتي (بدون معلومات نشر).

٤٠. **القرطبي**، محمد بن أحمد. (ت ٦٧١هـ). *الجامع لأحكام القرآن*. القاهرة: دار الشعب (د ت).

٤١. **القرعان**، فايز عارف. *التقابل والتماثل في القرآن الكريم*. بيروت: عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٦م.

٤٢. **كوكصو**، محمد مصطفي. *تحقيق غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني للكوراني* (رسالة دكتوراه) (جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية، تركيا، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م).

٤٣. **المصري**، محمود بن علي بسّة. (المتوفى: بعد ١٣٦٧هـ). *العميد في علم التجويد*. تحقيق: محمد الصادق قمحاوي. الإسكندرية: دار العقيدة، ط ١، ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤م).

٤٤. **المناوي**، محمد عبد الرؤوف. (ت ١٠٣١هـ). *فيض القدير شرح الجامع الصغير*. مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ط١، ١٣٥٦هـ- ١٩٣٧م.

٤٥. **النيسابوري**، مسلم بن الحجاج. (ت ٢٦١ هـ). *صحيح مسلم*. بيروت: دار الجيل بيروتو دار الأفاق الجديدة، بيروت. (د ت).